



التربية الموسيقية في المدارس العربية: بحث في العوامل المحددة للموقف البيداغوجي الناجع.

د. نجيب شيبشون (الجزائر)

إن السلوك التربوي المجدي يفترض الإحاطة بشروطه الاجتماعية والثقافية في سياقها الزمني مسبقا؛ إن من يريد أن يعلم الناس عليه أن يعرف المعطيات الطبيعية وإمكانيات النمو-أو كما قال أحد التربويين- والاهتمام بالمنهج التربوي باعتباره كلية العلاقات التي تخضع للمعرفة الحسية بين المربي والطفل، والنقاش حول العملية التربوية الحقيقية والذي يجب أن تضعه مؤسسات التربية موضع الممارسة، هو نقاش يجب أن يلخص منهجيا كل الأمور العملية والتي لا يجب أن تغفل أي مكون من مكونات العملية التربوية، لنقترب من التربية الموسيقية الحقّة والتي عنوانها القدرة على تقبل الجمال والاستمتاع بالتعبير الأصيل.

إن الاهتمام بالمنهج التربوي ينطلق أساسا من المحيط الذي نعيش فيه بمختلف مكوناته في أبعادها العلائقية والحضارية المتشعبة من تاريخ ومجموع أعراف وعادات ذلك المجتمع، مع الحرص على تبادلي الانسياق وراء التماهي في التفاؤل بالتقدم الذي غالبا ما ينمي الحركة النقدية للثقافة المحلية والذي من شأنه المساهمة في طمس بصمات الهوية الثقافية الحقّة.

والرصيد الحضاري للموسيقى العربية أقرته قريحته المتذوق العربي الأصيل بأبعاد ذوقها السليم المستنكرة للأصوات المخالفة لذلك، ما أنتج رصيد الموروثات الوطنية للثقافة الموسيقية العربية في ثراء أفكارها وعمق معانيها وجمال تعبيراتها والتي عرفتها إبان مختلف فترات إشعاعها.

وعندما نتمعن في كلية العلاقات التي تحكم الفعل التربوي نجد أنه يجب تضمين محتويات العملية التعليمية لرصيد الموروثات الوطنية للثقافة الموسيقية العربية ولا مناص من تطعيمها بعناصر وأمثلة من مشارب متنوعة بحكم نشاط الإنتاج الثقلي في إطار كوكبي، طالما تلك النماذج الموسيقية تحمل صفات الجمال والاكتمال.

لكن ذلك الرصيد المتنوع لن يؤدي الغاية المنشودة إلا أن تكون طريقة تبليغه وفق منهجية تربوية محكمة تراعي تمكين المتلقي من تلقف مخرجات تلك المكونات وبلوغ القدرة على تحسسها وإمكانية إعادة توظيفها بما يضمن الاستزادة العلمية والتربوية والجمالية في كل لقاء وممارسة، وفي كل مرة يكون تقاسم الإحساس بالسعادة هو محرك العملية الأساسي.



"الموسيقى والمجتمع في العالم العربي"

ولكن عن أي منهجية نتكلم؟ وما السبيل الأنجع في تحقيق ذلك الموقف البيداغوجي الفعال المسنود للتربية الموسيقية في الفضاء العربي؟ وإلى أي قدر يمكن افتراض تربية موسيقية عربية؟

إن منطلق المنهج الممكن إتباعه يكمن لا محالة أولاً في امتلاك مدارس وهيئات تشرف وترعى وتحتضن التربية الموسيقية كموقف بيداغوجي يُرجى منه الكثير لتأكيد وثبات مفعول التربية الموسيقية الإيجابي لدى مجتمعات سائلة ومعاصرة تقارعنا.

وأهمية المؤسسة المحتضنة تفرضه -فضلاً عن، أن لا مجال يمكنه التفاعل بالإيجاب دون رعاية نظام مؤسساتي متكامل البناء- فإن حامل عناصر الثقافة ومنها التربوية-التعليمية المستند على الإنتاج الموسيقي يحتاج إلى إطار ثقافي ومؤسسي يسمح بإيجاد ظاهرة ابتكار جمعي، بدون هذه الرفاعة التي تتكون مادياً ورمزياً عبر المؤسسة، يصعب تخيل تأسيس وتجسيد لعوامل نجاعة الموقف البيداغوجي الموكل للتربية الموسيقية في الوطن العربي.

إذا توفر إذا الهيكل المؤسساتي الذي يحتضن النشاط التربوي ويرعاه، يحين دور العقل الذي سيتفاعل، ولن يكون سوى تلك الكفاءات التي تتصدى لما يمكن عدّه حركات للتجديد الثقافى، والتي تتيح إعادة إنتاج الإبداع التربوي في قالب يتماشى مع أذواق الزمن الحالي ويستند إلى الموروثات الوطنية، ولا نقصد هنا فعل "الإبداع وهو نقيض الرجوع لما يمتاز به من تلقائية، والذي يضل على الدوام يفلت من قبضة الذهن البشري" وإنما نقصد الإبداع التنظيري-العملي الواعي من لدن أهل الاختصاص البيداغوجيين في صقل النظرية الموسيقية العربية وتوظيف أمثلة التطبيق لشريحة الطلبة والمتكولين.

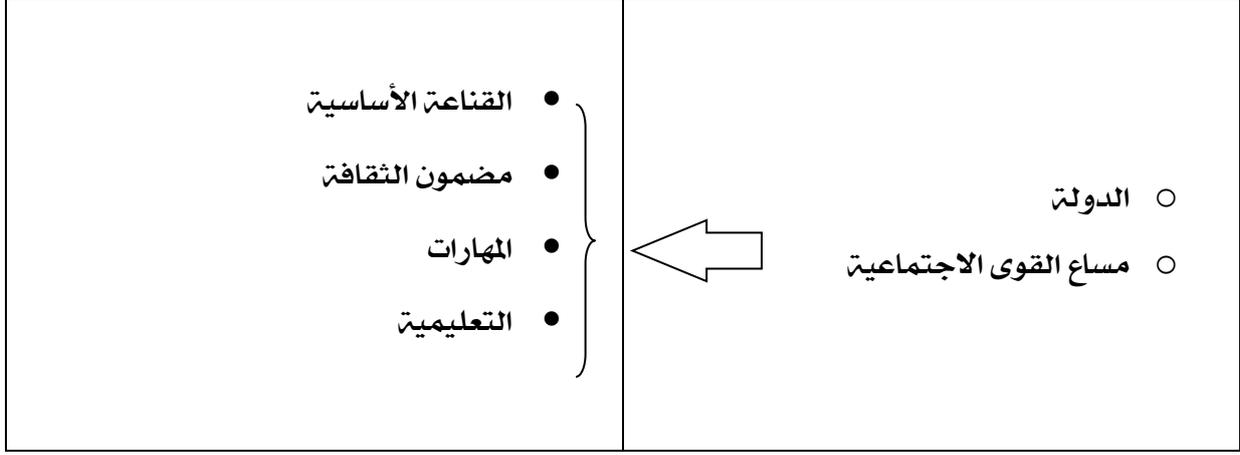
ولكن تلك الطاقات والكفاءات البشرية يجب أن يكون أساس تكوينها يؤمن بأن كل عقل يتصدى لمهمة التكوين التربوي يكون في حد ذاته "قدوة" وهذا اعتباراً من القاعدة التربوية التي قال بها الخبير رودولف شتاينر بأن ما يكون عليه المربي يستقر في الولد، لا ما يعلمه إياه، فكل نظرية يجب أن تكون من حيث الجوهر نموذجاً تجاه الطفل، والتعليم نفسه يجب أن يكون نظير عمل فني، لا مجرد مضمون مجرد.

وهكذا فالمعلم والمكون والمربي هو الفنان المبدع الخلاق لذلك العمل الفني بكل تجلياته الذي هو "الدرس"، هذا ما يطالب به الخبراء مع كل الدروس في مختلف المواد والوحدات، وما بالك إذا وجدنا أنفسنا نقصد الموسيقى كمضامين لتلك الحصص التعليمية عبر حصص التربية الموسيقية، هنا ترتفع درجة التحدي لمعلمي التربية الموسيقية في الوطن العربي، لأنه سيكون فنانا لتبليغ عناصر فنية، فوجب أن تعلق فنّيته في التقديم والتعليم الفن الذي يلقنه أو يكون على الأقل في مستواه، والفنية نعني بها التطبيق الذي تزيد نسبته عن بقية التخصصات، والممارسة تشكل دائرة قواعد للمساواة بين الفكرة والواقع وتقربنا من بلوغ النتائج.



"الموسيقى والمجتمع في العالم العربي"

وهكذا فأركان نظرية التعليم والتربية الموسيقية والتي هي من فروع العلوم الإنسانية تجمع كل ما يلي ليكتمل البناء:



عاملا الدولة والقوى الاجتماعية يجسدان الهيكل المؤسسي بكل أبعاده وهما عاملان في خدمة الأبعاد الأربعة الأساسية التي تخدم بدورها التعلم الموسيقي في الوطن العربي، ويمكن بسهولة إدراك مساهمة كل منها في اكتمال أركان العملية التعليمية للموسيقى إن أخذت كل منها قيمتها شكلا ومضمونا.

١. فالقناعة الأساسية تأتي من التقدير الذي يُعطيه أهل الاختصاص كما القائمين أو الفواعل الاجتماعية لتخصص التربية الموسيقية مثله مثل باقي التخصصات سواء الإنسانية أو الدقيقة دون أحكام تنقص من قيمتها مهما كان دافعها، وأمثلة أحكام الفلاسفة والأيديولوجيون والساسة غير المنصفة ليست ببعيدة عن كل مطلع.
٢. مضمون الثقافة: كل ما يدخل في المضامين التعليمية سواء اتصل بالمحيط الذي نشط فيه ونحن هنا نعني البيئة العربية برصيدها الحضاري في كل أبعاده، أو اقتبس من ثقافات أخرى.
٣. المهارات: ما يتعلق بالمكونين أنفسهم كما أسلفنا الذكر.
٤. التعليمية: المناهج وطرائق التدريس.

منظور لتفعيل أركان التربية الموسيقية كموقف بيداغوجي مُجد:

١. بداية وجب إدراك أن الموسيقى تجتذب غالبا نحو أنماط أفضل من السلوك وهذا المعنى من شأنه زيادة القناعة الأساسية لدى كل فواعل المجتمع العربي، مكونين ومكونين ومنتقلين تحت رعاية الدولة ومختلف القوى الاجتماعية، على أن نبدأ من البداية، والبداية لا تعد أن تكون سوى المرحلة الأولى من العمر ما يوافق سن رياض الأطفال إلى حدود ٦-٧ سنوات، هذه المرحلة



"الموسيقى والمجتمع في العالم العربي"

تتميز بقابلية الذهن " للتشرب" واستقبال التراث الثقافى، ووجب الاعتماد على بلورة كل جهودنا التربوية انطلاقاً من هذه الشريحة.

٢. الاستناد إلى مساهمات مجالات علم النفس في التربية من باب سيكولوجية الموسيقى كما عمل عليها الموسيقي والخبير ديفيز، والاهتمام الذي يجدر بنا وعيه هو دراسة العلاقة بين قواعد الموسيقى - التي بدون قدر من الضوابط سنلج الفوضى والمصادفة- وربطها بقواعد السلوك بين المكوّن والمتلقّي المتكوّن، على أن تكون القاعدة هي ربط المعرفة بالقدرة والتعلم بالمهارة.

٣. يجب أن يتحول التلميذ من موضوع في التعلم إلى ذات في التعلم، وأن يتحمل الحد الأقصى من المسؤولية كما دعا إليه الفيلسوف جون ديوي، وكثيرة هي طرائق التدريس التي تنصّب المتعلم في محور العملية التربوية.

٤. الاعتماد على التأسيس لمزج بين الحركة والموسيقى والجمالية اللغوية eurythmie كما سنّته إصلاحات القرن العشرين في أوروبا، وهذا في بناء برامج ومضامين نشاطات حصّة التربية الموسيقية.

٥. على الفاعلين في العملية أن يحسّنوا التعامل مع عالم تسيطر فيه العلوم والتقنية، ويسخّرونها لخدمة مشروعهم التربوي.

٦. إجراء دراسات واستطلاعات لتلمس المعوقات التي تحول دون امتلاك طلبة التربية الموسيقية وعلوم الموسيقى في الوطن العربي الاستعداد المباشر لتكوين وتنمية الحس الجمالي الواعي تجاه الموسيقى العربية بالقدر الكافي والمدرّكة لمكوناته وبناءاته النظرية، وسنجد على الفور أن الطلبة كما أغلب المجتمع مخترقّ ومُشوش عليه بكم هائل من الألوان الموسيقية والغنائية العالمية وفي قوالب سلبية بأنواع لا حصر لها من أساليب التشويق والإغواء.

٧. التركيز على المكتسبات والاستعدادات الفردية للطلاب ووعي مدخلات رصيده السمعي وحدوده، ثم تقنينها ووضعها في قالب أكاديمي أهم أطره العناصر البنائية للموسيقى العربية، على أن يكون الدافع الأساس لكل العملية التعليمية هو تقاسم الشعور بالسعادة وهذا يكفل الخروج من الاجترار الداخلي للمدخلات الموسيقية إلى الإحساس بالجمال في إطار البيئة العربية بما يزيد درجات الوعي والاعتزاز والانتماء لمكونات الهوية الموسيقية، وضخ المزيد من المكونات تباعاً بما يسمح صقل أكثر للاهتمامات والميول نحو الرصيد، وتتيح للطلبة أن يأخذوا بالبناءات الثقافية ويطلقون أعمارها حتى لا يكون مصيرها طي النسيان.

٨. مرافقة وحدات الاستماع والتذوق باطلاع الطلبة بذلك الثراء وعمق المعاني للثقافة العربية والتي عرفتها إبان فترات إشعاعها، من قبيل ما راح إليه ابن سريج عندما يخبرنا عن صفات



"الموسيقى والمجتمع في العالم العربي"

الغناء الجيد في عصره فيقول: "المصيب المحسن من المغنين هو الذي يشبع الألبان بالزائدة ويملى الأنفاس ويعدل الأوزان ويقحم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويقوم الإعراب، ويستوي النغم الطوال، ويحسن مقاطع النغم القصار، ويصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواقع النبرات ويستوي ما يشاكلها في الضرب من النقرات"، أو تبيان أن قطعة موسيقية جيدة يجب أن:

- يكون لها ملائمة ومطابقتة في أسلوبها ونسقتها، بمعنى أنها يجب أن توظف نظام موحد للتوقعات والاحتمالات .
 - يجب أن تمتلك وضوحا في القاعدة القصديّة (أي ما تقصده) .
 - يجب أن تمتلك التنوع والوحدة وكل الأنواع الأخرى التي بالسهولة بما كان أن نجدها بعد إكمال القطعة.
 - ينبغي في علاقة النص الشعري بالموسيقى كما يقول الكندي " أن يكون القول العددي - أعني الشعر- الملبس للحن مشاكلا في المعنى لطبع اللحن ... وفي نسبة زمانية - أعني الإيقاع - مشاكل لمعنى اللحن"، في إشارة لضرورة توافق كلا من موضوع الشعر والإيقاع مع لحن العمل الموسيقي،
- وكل هذه الصور وغيرها تبين بما لا مجال فيه للشك، مستوى الذوق الرفيع الذي ساير نتاجات الأعمال الموسيقية في الحضارة العربية.

٩. سرد تفاصيل تشكل النظرية الموسيقية العربية، وتدريسها في المقام الأول، ولا مانع لإضافة المدرسة الغربية متعددة الأصوات في المقام الثاني، ويمكن تلخيص النظرية العربية الرصينة الموغلة في التاريخ بما يلي: تبدأ بمؤلفات الكندي (٨٠١-٨٧٤ م) الموسيقية أقدم ما انتهى إلينا في هذا الموضوع وإن كان إسحاق الموصلي (٧٦٧-٨٥٠ م) قد ترك لنا نظام سلمه الموسيقي، طبقا لما أورده يحيى بن علي بن المنجم (٨٥٥-٩٠٨ م) في كتابه (رسالة في الموسيقى)، دون إغفال كتب الأخبار التي سبقته والتي ضاع معظمها من قبيل يونس الكاتب (المتوفى حوالي ١٤٨هـ) واضع كتاب الأغاني، أول من كتب في الموسيقى، ثم جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى حوالي ١٧٥هـ) وهو اللغوي المشهور وواضع علم العروض، ثم ظهر كتاب المائة صوت المختارة والذي اشترك فيه ثلاثة من كبار المغنين: ابن جامع (المتوفى حوالي ١٨٧هـ) وإبراهيم الموصلي وفليح بن أبي العوراء (المتوفيان حوالي ١٨٨هـ)، ثم جاء من بعدهم الكثيرون من أمثال: يحيى المكي، ويحيى بن أبي منصور الموصلي، وإبراهيم ابن المهدي أخو هارون الرشيد، وإسحاق الموصلي، وغيرهم.

١٠. مراجعة التمارين المضمنة حاليا واستبدالها بالاستشهاد المتكرر بأمثلة من التراث الوطني العربي مع العمل على التمرن عليها تطبيقيا في أنشطة القراءة والتنغيم والإملاء والعزف على الآلة، وهي تمارين ومقطوعات تكاد لا تعد يكفي فقط إيلاءها الأهمية الكافية، وقد يتفاجئ الجميع من روعة



"الموسيقى والمجتمع في العالم العربي"

وغنى ما سنصل إليه، كما يمكن اعتماد أمثلة مستوحاة من التراث العالمي في شق اكتشاف الموسيقى العالمية.

١١. اعتماد مبدأ التكامل بين مضامين الوحدات التعليمية من قبيل التاريخ والنظريات والتحليل وأيضا الأعمال التطبيقية، لتتفادى تشتت أذهان الطالب ونضمن بلوغ مرحلة مقبولة من الإشباع.

١٢. ومتابعة لتنفيذ الخطة التربوية في تجسيد حصص التربية الموسيقية: نبدأ بالأغنية المدروسة المحفوظة ليتعلم الأطفال الإيقاع مع مصاحبة الأغنية، ثم الصولفيج الغنائي أو (اللغة الموسيقية في شقها الإيقاعي)، تتبعها الألعاب الموسيقية، وأخيرا العزف على الآلات.

١٣. ومن أهم الشروط العامة التي يجب توافرها في مدرس الموسيقى حتى تؤدي المادة أغراضها التربوية: معرفة عميقة بالمادة، الصبر، المثابرة، حسن معاملة المتكلمين، الحماس، المحافظة على المواعيد، القدرة على نقل المعرفة.

١٤. إعطاء الأهمية اللازمة لعمليات التقويم المتنوعة بما يفيد ترسيخ التحصيل وتثمينه.

تلك الصفات والإمكانات والخطوات التي يجب أن تحف العملية البيداغوجية المرافقة للتربية الموسيقية، جميعها في اتساق وتكامل سيكون لها الأثر الطيب في مجارات نسق التربية الموسيقية للوطن العربي التي ننشد بما يمهّد لبناء أسس ومبادئ السوية الثقافية والاجتماعية العربية وبالتالي الحضارية.

أهم المراجع:

- اسماعيل مصطفى، ١٩٤٨. الأسس النفسية لعملية الابداع، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- بوركارد فرانز، ٢٠١٣. أطلس علم التربية، ترجمة جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت.
- جارجي سيمون، ١٩٨٩. الموسيقى العربية، ب.د.
- جيمينيز مارك، ٢٠٠٩. الجمالية المعاصرة، ترجمة شربل داغر، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- الرازي، محمد ابن أبي بكر، ١٩٢٠. مختار الصحاح، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- شيشون نجيب، ٢٠١٨. أسس التعليم الموسيقي الأكاديمي في الوطن العربي بين المناهج الغربية المقتبسة وأهمية الانطلاق من تراث الأعمال الموسيقية _ الغنائية العربية - الدراسات الموسيقية في الجزائر أنموذجا- بحث مقدم لمؤتمر الموسيقى العربية الـ ٢٧، القاهرة.
- فارمر هنري جورج. تاريخ الموسيقى العربية حتى ق ١٣، تعريب حسين نصار، مكتب مصر.



مؤتمر الموسيقى العربية الثامن والعشرون من ٢-٦ نوفمبر ٢٠١٩



"الموسيقى والمجتمع في العالم العربي"

- فيبير ماكس، ٢٠١٣. الأسس العقلانية والسوسيولوجية للموسيقى، ترجمة حسن صقر، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.

- يوسف، زكريا، ١٩٦٢. مؤلفات الكندي الموسيقية، مطبعة شفيق، بغداد،

- MONELLE Raymond, 1991. « Music, Imagination and Culture », in Music Analysis, vol. 10, No. ½, Oxford : Black Well Publishing.

- PONSARD Philippe, 2007. La Formation du sentiment esthétique chez les enfants, Alger : El-Borhane.

- SNYDERS Georges, 1999. La musique comme joie à l'école, Paris : L'Harmattan.